المؤسسة السياسية في المنظور القرآني

إعداد:أ.د.السيد عمر

أستاذ العلوم السياسية بجامعة حلوان

قاعة رواق المعرفة – مركز الدراسات المعرفية

٢٠٠٨/٢/١٢

في إطار الموسم الثقافي لمركز الدراسات المعرفية لعام ٢٠٠٧-٢٠٠٨ كانت المحاضرة الخامسة بعنوان "**المؤسسة السياسية في المنظور القرآني**" للأستاذ الدكتور السيد عمر – أستاذ العلوم السياسية – كلية التجارة – جامعة حلوان، وقد عقدت المحاضرة بقاعة رواق المعرفة بمقر المركز.

تدور محاور هذه الدراسة حول بناء مفهوم المؤسسة السياسية عبر التعريف بمضامينه اللغوية، توطئة لرسم معالمه في المنظور القرآني، ورصد مؤشرات

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الحفاوة ببناء العقلية السياسية المؤسسية في القرآن الكريم، **وذلك على التفصيل التالي**:

أولاً: **المضامين اللغوية لمفهوم المؤسسة**: يقول صاحب مقاييس اللغة:الهمزة والسين يدل على: الأصل والشيء الوطيد الثابت.**فالأس**:أصل البناء،وأصل الرجل،ووجه الدهر[١]. وفى لسان العرب: أس الإنسان:قلبه، وأس البناء مبتدؤه. **وأسست الدار**: بينت حدودها ورفعت قواعدها. **والأسيس**:العوض[٢].

وخلاصة هذه المضامين أن المؤسسية تدور حول: الثابت الناظم، للبداية والنهاية وما بينهما، وحدود الشيء ومعالمه،وما يساويه. ويتشابك هذا المفهوم بقوة بالتالي مع مفهومي العدل والمساواة. ويمتد فضاؤه المعرفي، ليشمل الإنسان والأشياء والزمان والمكان.

وتنسجم الدلالة الاصطلاحية للمفهوم مع تلك المضامين اللغوية،وإن كانت تضيق عنها. فهذا المفهوم ينصرف إلى التأسيس،بتنشئة **هوية جامعة**، إما ببناء أعراف وتقاليد مستقرة، أو بسن قوانين منظمة للسلوك. ويراد **بتأسيس شعب**:تحويل مجموعة أفراد إلى ذات اجتماعية مدركة لهويتها، وتعترف بسلطة ناظم هذه الهوية على تفضيلات أفرادها ومصالحهم.

بتعبير آخر، ينصب مفهوم المؤسسة السياسية على الحالة التي توجد فيها جماعة ينظم **العرف** سلوكها الإنساني،وينظم القانون الذي يسنه مشرعها، سلوك أفرادها كمواطنين.والمجتمع المؤسس هو المجتمع الذي يسوده **نظام** ينتظم أفراده في أنساق يستطيعون على ضوئه: **التعرف** على حقوقهم وواجباتهم المتبادلة، **وتوقع** عواقب سلوكياتهم على نحو منضبط.

والمؤسسة،بذلك،قواعد للتفكير والسلوك تبلورها جماعة ما، وتصير مميزة لها ومحددة لكينونتها. ويتعانق في هذا المفهوم: **المعيار والجزاء المحقق للامتثال له**. وبذا يتسع مفهوم المؤسسة ليشمل كل أشكال الضبط الاجتماعي المحققة لروابط متبادلة ملزمة على مستوى الأنساق العمرانية بكل مستوياتها.فكل الأنشطة والممارسات التي تحكمها توقعات مستقرة ومتبادلة تتدرج في ما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يسمى:مؤسسة.والسلوك المؤسسي هو امتثال ذات إنسانية جماعية أو فردية لمقتضى منظومة حقوق وواجبات متبادلة معترف بها، وملزمة[٣]

ويدور هذا المفهوم، في استعمالاته المعاصرة، حول البنى الفكرية،ونماذج التصرف، ونماذج العلاقات الإنسانية.ولما كان جذر المفهوم بهذه المعاني، هو الأعراف المستقرة، الملزمة من جانب المجتمع، أو من جراء تدوينها في قواعد دستورية وقانونية، فإن المؤسسة ترتبط ببنية مجتمع،ويصعب نقلها من مجتمع إلى آخر.

ومفاد ما سبق، أن المؤسسة فكرة تتجسد في واقع معين في سلطة ومنظمة أولية أو ثانوية. وتشير المؤسسية إلى: وضع الأنظمة والتكوين النظامي لأنماط مستقرة للتفاعل الاجتماعي، مرتكزة على أعراف وعادات جماعية، وقواعد رسمية ملزمة، ونسق للثواب والعقاب. والمؤسسة، بدلالتها السائدة، شخص اعتباري يتخصص في مجال معين لرعاية عمل عام له طابع ديني أو علمي أو إنساني أو فني، أو أي عمل من أعمال البر والنفع العام، لأغراض غير الربح المادي.وهذه الدلالة على اتساعها، أضيق بكثير من الدلالة الأصلية للمفهوم، التي تشمل: **الأوضاع المصطلح عليها** في مجتمع ما لتنظيم العلاقات بين أفراده في كل مجالات الحياة، **وطرق التفكير والعمل السابقة** في نشأتها وقيامها على وجود الأفراد التي تنتقل من جيل إلى آخر، ويلتزم بها أفراد المجتمع، بوصفها من مقومات الترابط الاجتماعي،كنظم الزواج،والأسرة[٤].

ثانياً: **مفهوم التأسيس**: ورد الفعل (أسس) في القرآن الكريم ثلاث مرات في اثنتين من آيات سورة التوبة في معرض التأكيد على عدم التسوية بين ذات إنسانية تؤسس بنيانها على التقوى،وأخرى تؤسس بنيانها على شفا جرف هار، فينهار بها في نار جهنم [٥]. ففعل التأسيس جاء مرتبطا **بالبنيان الإنساني كله**، متلبسا بالتقوى أو بالضرار، مؤشرا على قابلية البنيان المؤسس، للصلاح والفساد، ولئن يكون مطية للضر والضرار، أو للفوز والتعاون على البر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتبين للناظر في الخطاب القرآني، التأكيد البالغ على الأنساق والمؤسسات المنضبطة، مع رسم معالم الانحراف بالمؤسسات للحذر منه، ومعايير الإستواء المؤسسي لتزن البشرية بنيانها بمعايرته بها. ومن بين العلامات الدالة على امتلاء الخطاب القرآني بخاصية المؤسسية، والعناية بتأسيس العقلية المؤسسية السياسية، للذات الإنسانية بكافة مستوياتها، على سبيل المثال، لا الحصر:

١ - **مقابلة الجمع بالجمع**: يكشف التأمل في **الجملة القرآنية**، عن توجيهها للذات الإنسانية، إلى تأسيس بنيانها على علاقة بين أنساق لها كينونتها الجماعية المنظمة، وتشكل في مجموعها نسقا إنسانيا جامعًا عبر الزمان والمكان. ويظل كل نسق مسؤولاً عن نفسه، في كل صور علاقته بالأنساق الأخرى. ومن شواهد المقابلة بين الجمع والجمع، في القرآن: استخدام الأفعال الدالة على الأمر والنهى الموجه إلى **جماعة**، المتضمن، في ذات الوقت، الأمر إلى **كل فرد منها**، فيما يتعلق بموضوع الأمر والنهى من جهة، والشامل لكل **فضائه** من جهة أخرى. ومن نماذج ذلك قوله تعالى " فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " (٦)، وقوله تعالى " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ " (٧). فالأمر باستباق الخيرات موجه إلى كل مكلف، فضلاً عن كونه موجه إلى الأمة بكاملها. والمؤمنون يؤمنون بكل ما أُنزل إليهم من ربهم كأمة وكأفراد. كما أن الخطاب القرآني يقابل **الجمع بالمفرد**، على شاكلة ما جاء في قوله تعالى " وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " (٨). فالجلد ليس للاثنين معاً، بل لكل واحد منهما.

واستخدم القرآن الكريم **المفرد بمعنى الجمع**، في إشارته، على سبيل المثال، إلى **سيدنا إبراهيم** بأنه بمثابة **أمة**، وفى استخدامه لمفهوم **(الصديق)** على أنه بمثابة جماعة. فالحق يقول " لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ **أَوْ صَدِيقِكُمْ** لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " [٩]. كما استخدم القرآن الكريم **الاثنين في مقام الجمع**. من ذلك قوله تعالى " وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ **يَحْكُمَانِ** فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا **لِحُكْمِهِمْ** شَاهِدِينَ " [١٠].

٢- **التوجيه إلى التآلف**: إلى جانب هذا التأكيد على العلاقة العضوية بين الجمع والمفرد في الخطاب القرآني، ترسى الجملة القرآنية [١١]، المؤسسية، كخاصية للعمران الإنساني، عبر التأكيد بالألفاظ ذاتها، على: **الطابع الجامع للخير، وعلى الطابع المفرق للشر**. فالفاعلية رهن بوحدة الفاعل وجمع الأمر. ومن نماذج ذلك قوله تعالى " هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم **بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ** وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا **رِيحٌ عَاصِفٌ** وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " [١٢]. فلقد وضعت الآية الكريمة **ريح الرحمة الطيبة** بلفظ مفرد في مقابل **ريح العذاب**، بما يستبطنه ذلك من دلالة معنوية مفادها أن **تمام الفاعلية لا يتحقق إلا بوحدة الفاعل**. فوحدة الريح وعدم اختلافها يجعلها طيبة ويُفضى إلى الرحمة. واختلاف الريح أو اتصافها بـ **(الريح العاصف)** سبب للهلاك.

وبالمثل، نجد أن القرآن الكريم يفرد **مفهومي النور**، والصراط المستقيم، بينما يجمع **مفهومي الظلمات**، والسبل، بما يتضمنه ذلك من إشارة إلى وحدة سبيل الحق واستقامته، وتفرق سبل الباطل وتشعبها. ومرة أخرى، يغلب **الواحد المجتمع، المتفرق المختلف**. ومن النماذج القرآنية لذلك " اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ **الظُّلُمَاتِ** إِلَى **النُّورِ** وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يُخْرِجُونَهُم مِّنَ **النُّـــورِ** إِلَى **الظُّلُمَاتِ** أُوْلَـــئِكَ أَصْحَـــابُ النَّـــارِ هُـــمْ فِيهَـــا خَالِدُونَ" (١٣)، وقوله تعالى " وَأَنَّ هَـــذَا **صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا** فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُـــواْ **السُّبُلَ** فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن **سَبِيلِهِ** ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (١٤).

٣- **ربط الحرية الحقة بالالتزام بالصراط المستقيم**: لا موضع للحركة العشوائية، ولا للفوضى، في تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان. فطريق الحـــق المستقيم والواحد، يُفضى إلى السعة،وإلى الحرية الحقة للإنسان، بينما تُفـــضي طرق الباطل رغم تعددها الموحى في الظاهر بتمتع ســـالكها بالحريـــة، إلـــى **الضيق وضياع الحرية**. فكل طرق الباطل تصل إلى **(النار)** التي لم **يجمعهـــا الله أبداً** في القرآن الكريم، في يحين يُفضى طريق الحق إلى **الجنة** التي أتـــت في القرآن الكريم بصيغة المفرد والمثنى والجمع.

٤- **الزوجية أساس العمران الإنساني**: السبيل الوحيد لبناء **الأنـــساق العمرانيـــة المؤسسية**، هو ذلك المفهوم الجامع: **الزوجية**. ومن أبرز العلامـــات الدالـــة على ذلك: تأكيد القرآن الكريم أن الزوجية هي نظام كافة المخلوقـــات، فـــي مقابل **الأحدية** كسمة ينفرد بها الخالق، حيث يقول الله تعالى " وَمِن كُلِّ شَـــيْءٍ **خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ** لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (١٥)، ويقول " وَخَلَقْنَاكُمْ **أَزْوَاجًا** " (١٦).

ولم يبدأ التكليف الإلهي إلا بعد أن صارت هناك صفة **الزوج** فـــي الـــنفس الواحدة. فخلق الله من آدم زوجه حواء، وسكن إليها، وشـــد الله أســـره بهـــا، فكانت **الأسرة الواحدة** الأولي بأول ميثاق غليظ، ليُبث منها بطريق الـــزواج رجالاً كثيراً ونساء، ينتظمون بدورهم في أسر، ويـــشكلون بطونـــاً وأفخـــاذاً وعشائر وقبائل وشعوباً مأمورة بالتعارف، المؤسس للأمة الواحـــدة الجامعـــة (١٧).

بل إن مفهوم **التزاوج** يظل ملازمًا للأمم يوم الحشر، حيـــث يقـــول الله تعالى " احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا **وَأَزْوَاجَهُمْ** وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ " (١٨). ومن الشواهد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدالة على عمق مفهوم **الزوجية**، أن السورة التي سماها الله، باسمه الرحمن، التي تضمنت تذكيراً للمكلفين على نحو متكرر بنعمه، بُنيت على هذا المفهوم، حيث زاوجت بين: الإيجاد **بالخلق**، والإيجاد **بالتعليم**، وعن نوعى الخارج من الأرض، والحياة والموت،والعدل والظلم في ميزان الله تعالى، إلى غير ذلك من الأزواج. والزوجية،بذلك،هي جوهر الاختيار الإنساني، وهى علامة احتياج النوع البشرى، ومفتاح التكامل بين الأزواج في تحقيق مقصود الاجتماع الإنساني. **و** يتضافر مفهوم الزوجية مع مفهوم: **الأخوة** والذي هو مفهوم مشتق من: تآخى كل طرف ما يتأخاه الآخر، بمعنى وحدة القصد بين طرفين، وتتولد من ثمرة الزوجية الأسرية، أو من جامع الدين أو الإنسانية، أو القصد.

٥- **الأمة الشاهدة السائلة** [١٩]: يهتم السياق القرآني في ظل هذا الطابع الجامع الذي يؤسسه لعقلية أمة الإجابة، بدعوتها إلى المؤسسية الصارمة بحكم شخصيتها المتفردة. وهو يحذرها من التهاون في ذلك، لأنه يصيرها حجة على دينها، ويسقط مصداقيتها عند غيرها من الأمم. **فهويتها كأمة شاهدة مبينة في كتب السابقين**. وعلى رأس التكليف الإلهي لها، ألا تدع للأمم الأخرى سبيلاً إلى إقامة الحجة عليها، بمخالفة سلوكها، في أرض الواقع، للعلامات التي بين القرآن أنها من الأمارات المسطرة في كتب النبيين السابقين الدالة عليها، كأمة واحدة،مكلفة بأن تكون خير أمة أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله تعالى.

ومن هذا المنطلق، يرشد القرآن الكريم **الأمة الشاهدة** إلى التوجه بالسؤال إلى السلف الصالح والطالح على السواء. فهي تنقب في سيرة **الأخيار** منهم بُغية **التبصرة**، وإتمام البناء الذي أسسوه، وتجادل من تنكبوا الصراط المستقيم منهم،بالتي هي أحسن، لإقامة الحجة عليهم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن بين الأساليب القرآنية في التنشئة الإنسانية من مدخل **سؤال السلف**: تأسيس **مجمع الشاهدين** المتكاتفين عبر الزمان والمكان لإقامة شرع الله في الأرض. وهذا السؤال موجه حتى للرسول نفسه،في قوله تعالى " **وَاسْأَلْ** مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ " (٢٠)، وتأسيس **مجمع المشهود عليهم**، بالسؤال الهادف إلى التعمق في معرفة الآخر وإقامة الحجة عليه عبر مصادره هو ذاته.

ومن هذه الأساليب أيضاً: **إعادة بناء السؤال**، والتنبيه إلى الأسئلة الأولى بالإثارة، في الرد على ما طُرِح بالفعل من أسئلة،والتوسع في الإجابة، بطرح ما هو أوسع من الرد الدقيق على السؤال المطلوب، والتنشئة على التخلق بالاقتصار في السؤال على الكليات، وما وراءه عمل، وما من شأنه التوسعة على الأمة وعدم التضييق عليها وعدم زعزعة طمأنينتها النفسية. ومن النماذج القرآنية التي يمكن إيرادها هنا، قوله تعالى " يَسْأَلُونَكَ عَنِ **الأهِلَّةِ** قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن **ظُهُورِهَا** وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (٢١). فلقد تمت هنا إعادة بناء للسؤال، تنبيهاً على أن الأولى هو **السؤال عما وراءه عمل**. وحين سألت الأمة " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ" (٢٢)، جاءت الإجابة ببيان المستحقين لإنفاق الخير عليهم، بدل بيان الأشياء التي يتم الإنفاق منها.

والمتأمل في فضاء مفهوم **(السؤال في القرآن الكريم)**، يلمس حفاوة بالغة بتنظيمه، وتأسيس قواعد للإحسان فيه، وبه،بالتوجيه للإجابة الصحيحة، وإلى عبرة سوابق طرح ذلك السؤال من قبل، وإلى الأسئلة الأولى بالإثارة، وتلك الأولى بالترك، وإلى مسؤولية الإنسان عن ما يثيره من أسئلة. وورد عن ابن عباس أن الصحابة خالفوا اليهود في كثرة توجيه الأسئلة إلى رسلهم والاختلاف عليهم، ولم يطرحوا على النبي غير أربعة عشر سؤالاً كلها وردت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في القرآن الكريم. بل إن التدقيق في الأمر يبين أنهم سألوه عن **عشرة قضايا فحسب**،هي: ماذا أُحل لهم، الأنفال، اليتامى، الخمر والميسر، المحيض، الأهلة، الجبال، ذي القرنين، الروح، الساعة [٢٣].

ثالثاً: التأسيس للحرية الإنسانية المسؤولة: المؤسسة في جوهرها قواعد متعارف عليها من جانب جماعة منظمة لترتيب علاقاتها. وعماد هذه القواعد في المنظور القرآني،هو: تعزيز حرية الإنسان.والشواهد على ذلك لا تكاد تحصى، **نجتزئ خمسة منها:**

١- **الخطاب بالشيء على اعتقاد المخاطب، دون ما في نفس الأمر:** من بين الشواهد على ذلك استخدم القرآن الكريم ألفاظ: الشركاء والأنداد، **ووصف بعض الكافرين به** بـ: العزيز الكريم، الحليم الرشيد. ومنها، أيضاً، الحديث في مسألة اعتبار إعادة الخلق أهون من إنشائه، بوصفها مسألة تتعلق بما يجول في خاطر البشر بحكم ضعفهم، وإن كان لا محل له بالمرة فيما يتعلق بالله تعالى. بل يصل القرآن في تأكيد هذه القاعدة،إلى حد تقديم فعل **البشر**، على فعل **الله** تعالى، في ترتيب استحقاق **الثواب والعقاب**، في قوله تعالى " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" [٢٤]. ويؤسس الخطاب القرآني لتعظيم **مسؤولية المبادرة الذاتية في إنشاء الخير والشر**. فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ويُستدل على هذه القاعدة من وصف القرآن الكريم لكل من يكون له السبق في المنكر بـ **(الأظلمية)**، بما أنه الأسوة في نوع الظلم الذي أسسه. وفى هذا السياق يؤكد القرآن أن أظلم من منع مساجد الله، هو من شرع ذلك، وكذا أظلم من افترى على الله كذباً هو أول فاعل لذلك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢- **بث الأمل في الإنسان في قدرته على التمتع بحرية الكلمة**، أياً كانت درجة الانحراف التي يواجهها، ما دام يستند إلى المنهج الإلهي، ويتحاشى دواعي الجفوة. **ومن أهم الأمثلة القرآنية لذلك** التوجيه الإلهي لموسى وهارون بعدم اليأس من إمكانية أن يهتدي أمثال فرعون، مع ضرورة استخدام اللين في القول، من باب الإحسان وإقامة الحجة. فمن الأهمية بمكان أن لا يفقد الداعي إلى الخير الأمل في فلاح سعيه. ومن الأدلة على ذلك، أن معظم الآيات القرآنية التي أشارت إلى الرحمة والعذاب، سبقت فيها الرحمة، باستثناء الإشارة في الآية الأربعين من المائدة المتعلقة بقطّاع الطرق والحرابة، وبعض مواطن أخرى معدودة خاصة بخطاب للكفار يوم الحساب [٢٥].

٣- **التنشئة على وضعية اليد العليا، والتحرر من وضعية اليد السفلى. فاليد العليا خير من اليد السفلى**. والفقير إنسان كامل الأهلية، ينبغي توجيهه إلى الطريق لإخراج نفسه من تلك الحالة، بالتركيز على ما لديه من دافعية للعمل، وتجاوز سياسات **الإفقار الراهنة** التي تربط المساندة للإنسان بقدرته على رد مقابل لتلك المساندة. ويستدعى الوقوف على العمق القرآني لهذا المبدأ المؤسسي، إعادة تعريف **مفهوم الفقير**، من أجل تجسير الفجوة بين الأثرياء والفقراء. فالمفاهيم شبيهة بعلامات الإرشاد الملاحي في المياه المجهولة.

ولقد اهتم الرسول عليه السلام بتحرير مفهوم **(المسكين)** مبيناً أنه: من لا يجد غنى يُغنيه، ولا يُفطن إليه فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس. وبين القرآن الكريم أن جوهر مفهوم **(التكذيب بالدين)** هو: المعاملة الفظة لليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين. وكل نظام يصنع الفقر والمسكنة، ويدعم وجودهما، هو بمثابة تكذيب بالدين. والمؤسسات الخيرية إذا قدمت ما يغرى الفقير بالتعطل والبطالة، ويستديم جعل يده سفلى، ويدفعه إلى تعمد الكذب والاحتيال، تكون قد أصبحت اسماً على غير مسمى. وتصوير **الزكاة** على أنها: آلية لجبر حاجة الفقراء اللحظية، وضع لها في غير محلها، إذا أن **وظيفتها هي: تحقيق الإحسان المالي الباني لمجتمع الكفاية**. وأي تشريع أو

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عرف يقيم **حياة شطر من الأمة على الفضلات التي يلقيها إليها الشطر الآخر، هو تشريع للإفساد** في الأرض. فالصدقة لا تجوز على غنى ولا على ذي مرة سوى. وتمثلت المعالجة النبوية للفقر، في توجيه الفقير إلى أن يصير صاحب عمل، بحيث يحل مشكلته بنفسه، ويخرج بجهده من ذل السؤال. ومما لا شك فيه أن قبول أمتنا مد اليد للأجانب، وجعل يدهم هي العليا ويدنا هي السفلى، هو باب فساد كبير، واختراق لهويتها وكرامتها [٢٦].

٤- **التنفير من طلب الخوار ق**: من بين القواعد التي يحث القرآن على تأسيس العمران الإنساني عليها: **السعي إلى الهداية بسنن الأولين**. فالقرآن الكريم يؤكد على أن الآيات التي عززت دعوة الأنبياء السابقين كانت ذات تأثير مؤقت، فضلاً عن كونها أفضت في المدى الطويل إلى الإضرار ببني الإنسان. ومن هنا يأتي التحذير القرآني للأمة الإسلامية من أن تحاكى الأمم السابقة في طلب المعجزة من نبيها. وفى ذلك يقول الله تعالى " أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ " [٢٧]. وهكذا بلغ التنفير من سؤال الخوارق، حد اعتباره بمثابة تبديل للكفر بالإيمان [٢٨].

٥- **التنبيه على قابلية المؤسسة الدينية للتلاعب**: ينبه القرآن الكريم إلى أن العبرة بالنسبة للمؤسسة الدينية هي بالمعنى وليس بالمبنى. ولقد عرف صدر الإسلام ما عبر عنه القرآن الكريم، بقوله تعالى " **وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** " [٢٩]. فرغم أن المؤسسة التي أُقيمت سُميت مسجداً، فإن غايتها كانت أبعد ما تكون عن رسالة المسجد الجامعة. **فهي مؤسسة ضرار** (وهو ما ليس فيه منفعة لفاعله، وفيه مضرة لغيره، **وهو غير الضرر**، الذي فيه منفعة لفاعله، ترتبط بمضرة على الغير).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكل مسجد يؤسس على الضرار والرياء والسمعة هو في حكم هذا المسجد. وإذا كان المسجد المبنى للضرار يُهدم، فإنه من باب أولى يهدر أية مؤسسة أخرى غايتها الضرار. وضابط هذا الباب هو: حظر كل فعل يترتب عليه إضرار بالغير. فالضرر يزال، حتى لو كان في مستوى دخان الفرن. ومن المضامين المهمة هنا، الإشارة إلى أن تأليف قلوب الأمة وجمع كلمتها هو المقصود الأكبر للدين، وبالتالي فإن كل ما من شأنه التفريق بين المؤمنين، وتشتيت الكلمة، ينبغي هجره. ومن هذا المنطق تأتى رمزية حظر إقامة صلاة جماعتين في آن واحد. والأفعال تختلف بالقصد والإرادة، حتى وإن ظن صاحبها أنه على صواب، طالما كان ضابطه في ذلك غير منهج الله تعالى. فبناة مسجد الضرار زعموا أنهم لم يريدوا إلا الحسنى. ومن هنا أيضاً يتأسس النهى عن القيام لله تعالى إلا في مسجد أُسس على التقوى، مع التنبيه إلى أن التأسيس على غير ذلك يورث النفاق في القلب.

ومن الأمور ذات الدلالة أن تأتى في هذا السياق الإشارة إلى شراء الله من المؤمنين أنفسهم، في التأسيس لعلاقة تعاقدية، من **خصال طرفها الإنساني**: الإيمان المتجسد في التوبة والرجوع إلى الله والطاعة والحمد، والصيام، والركوع والسجود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحفظ حدود الله. وكنموذج للقدوة في هذه الخصال يأتي ذكر إبراهيم عليه السلام، ونهيه عن الاستغفار للمشركين بعد وفاتهم، مع مواصلة الاستغفار للأحياء منهم وتألفهم بالقول الحسن رجاء إيمانهم، ماداموا على قيد الحياة. فالشرع لم ينهنا، فيما يقوله ابن عباس، عن **الاستغفار للأحياء**، كما أمرنا بالحكم على الآخرين بظاهر أحوالهم عند الموت وترك سرهم لله تعالى. ومن بين الخصال المتجسدة في **النموذج الإبراهيمي**: كثرة الدعاء لله تعالى، والرحمة بعباد الله، وتعليم الخير، والشفقة، والاستغفار والحلم بالصفح عن الذنب والصبر على الأذى. وهذا النموذج هو الدليل إلى الفوز بـ **(قدم صدق عند الله تعالى)**.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتسع مفهوم **المؤسسية**، ليشمل الوعي بإمكانية التلاعب بالأدلة على مستوى الأنساق الإنسانية، ما صغر منها وما كبر. فإخوة يوسف اصطنعوا دليلا. و رد يوسف،وهو على رأس دولة، باصطناع دليل. ويتعانق هنا **مفهوم (الدم الكذب)** ومفهوم (من وجد عنده صواع الملك)، وهما مفهومان بالغا الثراء في مضامينهما السياسية المؤسسية.

فلقد أراد أخوة يوسف أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم، فجاءت الأمارات لتدلل على أنه مكذوب فيه، وعلى أن المكذوب فيه يصير كذباً في ذاته. وضمن هذا الدليل نبه القرآن الكريم إلى انتفاء العصمة عن أي اجتهاد بشرى، حتى لو صدر من نبي، ما لم يكن معه من الله برهان.

ومن المضامين السياسية المهمة هنا اعتبار الثمن الذي دُفع لمن أخذوا يوسف، ثمناً بخساً، رغم أنهم باعوه لعزيز مصر. ذلك أن **أي ثمن لا يساوى نزع الحرية عن نفس آدمية حرة**. وفى ذات الوقت، فإن في ذلك الموقف ما يؤشر على جواز شراء ما هو ثمين بما هو يسير، وعلى اعتبار لسان الحال أبلغ من لسان المقال. فموضع قد القميص، سبق إقامة الحجة.

ومن العطاء السياسي أيضاً لقصة يوسف، ضرورة التفرقة بين: **إساءة النظام الحاكم إلى الإنسان في شخصه، وبين حق الإنسانية عليه**. فالقدوة في يوسف داعية إلى عدم الرد على الإفساد والظلم وحفظ النصيحة الدافعة للفساد، والمحققة لكليات شرع الله تعالى في حفظ الدين والنفس والعقل والأنساب والأموال. وفى سبيل ذلك، جاء عرض يوسف **العمل**، حيث توفرت فيه شروط القيام به، وصار من أهله. وفى ذلك أيضاً ما يؤشر على جواز عمل الفاضل للمفضول، من أجل صالح الإنسانية، وأن النهى عن طلب الإمارة، لا يطول

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحالة التي يكون فيها الإنسان أهلاً لعمل،لا يتوفر من يقوم به على النحو الذي يستطيعه. ومعنى ذلك، أن مبدأ عدم طلب الإمارة نسبى، وليس مطلقاً.

ومن المضامين السياسية أيضاً التي يمكن الاستفادة منها من صنيع يوسف مع أخوته، جواز قبول الضرر المؤقت، لما يترتب عليه من خير في المدى الطويل. فلقد أسفر أخذ يوسف لأخيه عن تنبيه سيدنا يعقوب إلى رؤيا يوسف الأولى، وإلى أن ابنيه ربما كانا في مصر.

ومن جهة أخرى، فإن الطريقة التي أخذ بها يوسف أخيه، تؤشر على ضرورة تربية الجماعة على الوعي بأن **السلامة الشكلية لأدلة الاتهام**، لا ينبغي أن تنفى حسن ظنها بنزلاء السجون، وعدم اليقين بإدانتهم. ومن شأن تكريس هذا المبدأ **تعزيز دافعية الجماعة** لإعادة النظر في الأدلة من جهة، وحفظ كرامة المسجونين من جهة أخرى، والتأسيس لإمكانية إعادتهم إلى نسيج المجتمع، بيسر بعد انقضاء ابتلائهم بسجونهم.

ومن المهم الإشارة هنا أيضاً إلى أن يوسف استفاد من علمه **بشريعة بني يعقوب** التي كانت بمثابة قانون حاكم لهم، **في أخذ أخيه**، وهو ما كان لا يستطيع القيام به وفق القانون السائد في مصر آنذاك. ولو كان أخوة يوسف على دراية بقوانين الأمة التي اضطرتهم الظروف للتعامل معها، لكان لديهم متسع للاحتفاظ بحرية أخيهم. وبالتالي، فإن من الأهمية بمكان التنشئة على الوعي **بقوانين الأمم** الأخرى للاستفادة منها. فالتعامل مع ذوى السلطان، مهما كان صلاحه يحتاج إلى تدبير في المقابل، وإلا اختلت المعادلة، وانفتح المجال أمام السلطة للتلاعب بالأدلة، والتوصل إلى أغراضها بحيل خفية.

ومن بين المضامين السياسية هنا: جواز الشكوى عند الضرر، وإظهارها لمن يرجى النفع بإظهارها له، ومطالبة السلطة في حالة الضرورة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بتجاوز العدل إلى الإحسان. ومما يعزز فاعلية الشكوى الإقرار بالخطأ في حق الغير، وسؤال العفو، في حالة مواجهة السلطة للشاكي بما يثبت ذلك، في مقابل وجوب تحلى السلطة بالإحسان والعفو، والتأسيس لمبدأ تحلل أطراف العملية السياسية من كابوس الخطأ في حق بعضهم البعض.

وفى هذا السياق يأتي تركيز يوسف عليه السلام على خبرة السجن، وإغفال الإشارة إلى خطأ أخوته في حقه، لأن من الجفاء ذكر الجفاء في وقت الصفاء. بل إن يوسف أحال ذنب أخواته بحقه على الشيطان من باب التكرم منه، وأشار إلى لطف الله تعالى ورفقه بعباده وبره بهم، وتمنى الوفاة على الإسلام، بوصفها غاية ما يطمح إليه الإنسان مهما بلغت درجة التمكين له في الأرض. وفى ذات الاتجاه، يأتي تركيز السياق القرآني على التنفير في المقابل من دخول مساكن الظلمة، ومن الانشغال بما في أيدي الناس عن الغنى الذي يحققه الإنسان بالامتثال للنور القرآني [٣٠].

ومن عبرة السلف الصالح في **السعي المؤسسي في الأرض للتمكين للحرية**، ما يقدمه ذو القرنين، حين يسوى بين الصدفين، ويستخدم معالم الأرض ومعادنها، في تأدية وظيفتها، وكأنها امتداد له، في الفعل الحضاري الرامي إلى حماية الضعفاء، ودفع الظلم عنهم لوجه الله تعالى. وفى ضوء هذه الخبرة، يعتبر تقاعس أمتنا عن موقع الصدارة في العلوم الطبيعية بمثابة جريمة في حق الإسلام. وجوهر إنسانية الإنسان هو وعيه بذاته وتحمله للأمانة قولاً وفعلاً. والإنسان مفطور على القيام بالتكاليف الشرعية باختياره. وهو وإن كان غير معصوم من إمكانية الوقوع في ظلم النفس، فإن الشرع يفتح له باب التخلص من ذلك الظلم، بالتوبة من المعصية. ومن مداخل تضييع الأمانة، إسناد الأمر إلى غير أهله. وبالمقابل، فإن من أهم أسباب التمكن من حمل الأمانة، الاستعانة بنعم الله تعالى، في القيام بمهمة التسبيح المشترك،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المتبلورة في حقيقة أن: كل مخلوق في هذا الكون صاحب رسالة، علمه الله إياها وكلفه بالقيام بها [٣١].

رابعاً: الإيلاف: تتجسد حفاوة القرآن بالعمران الإنساني المؤسسي، في اعتبار إيلاف الأمم السعي المنظم في أرض الله، المستند على الحرم،منة من الله. **ومن بين مبادئ رعاية الأمم لهذه النعمة:**

١ - **تأسيس أعراف حية مستقرة**: مما تنبه إليه سورة قريش، أن الاعتياد على الأمر الصعب، والذي هو جوهر نقل القيم من جيل إلى جيل، يتضمن أمرين: **التواتر** المولد للعادة، **والمخاطر** التي تهدد وضعية ذلك التعود. والقدرة على التكيف مع متطلبات الوقت هي أساس العرف الحي المستقر. أما الجمود على عرف معين مهما كان صالحاً في أساسه، فيحوله من قاطرة للإيلاف، إلى قيد قاتل لحيوية الأمم. وفى حين وجه القرآن الكريم، النبي، في بداية التنزيل، إلى قيام معظم الليل، ومجاهدة الكفار والمنافقين، فإنه وجهه في أواخر ما نزل منه، إلى: التسبيح والاستغفار والسعي إلى التوبة. ومما منَّ الله به على قريش أنه جعل حب التجارة عادة مألوفة لها، وهداها إلى سبل تحقيق الأمن ودفع المخاطر التي يمكن أن تصاحب هذه العادة. وقدمت السورة الكريمة: الألفة على الجوع، في حين قدمت الأخير على الأمن. وإقامة الدين هي السبيل للألفة والأمن معا. وعاصم الأمم من: الهلع والجزع، ومن البخل، هو: الصلاة، حيث يقول الله تعالى " إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ " [٣٢].

٢ - **إقامة العلاقات الإنسانية على واقع الأمر**: يتطلب فك أسر مفهوم التنشئة السياسية، بناء الوعي بالفارق بين: **واقع الأمر، وما في نفس الأمر**. فجوهر التوجيهات القرآنية يتعلق بترتيب علاقة الإنسان **بواقع الأمر**. ومن هذا المنطلق ينبغي عدم إثقال النص القرآني بما تكشف عنه البحوث المتعلقة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالسنن الطبيعية الكونية، بما أنها بمثابة سبل للتعرف على: **تفصيلات متعلقة بنفس الأمر**، تيسر سبل التسبيح المشترك بإعمال يد الإنسان وفكره فيما سخر الله له من أشياء في السماء والأرض. أما النص القرآني فيتعلق بالكليات.

ومن النماذج التي يمكن تسليط بعض الضوء من خلالها،على هذه الفكرة، ضرب الله المثل بـ: **بيت العنكبوت**، على أنه بمثابة **رمز للوهن**. فإذا تبين لباحث أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر، فانطلق من ذلك إلى القول بسبق القرآن الكريم لإثبات هذه المعلومة، بما أن القرآن استخدم الفعل بصيغة المفرد المؤنث (**اتخذت بيتاً**)، ثم انطلق من ذلك إلى المقارنة بين صلابة خيط العنكبوت وصلابة ما يناظره من الصلب، للخروج بأن خيط العنكبوت أقوى من نظيره من الصلب ثلاث مرات، فإنه يكون قد دخل في نطاق الصرف عن النص القرآني، بالخوض في نفس الأمر. وهذا من قبيل الخوض فيما لا علم يقيني بشأنه، وما لم يتوقف تفعيل النص القرآني عليه قبل اكتشاف مثل هذه الجزئيات. والقرآن الكريم،يربى المؤمن به، على نبذ الخوض فيما لا عمل وراءه، واحترام مقولة (**لا ندرى**) بخصوص ما ليس له به علم [٣٣].

٣- **تحرير عقل الأمة من الوهم**: تأتى هنا ضرورة تربية ملكة: **السعي إلى إزالة الخفاء**، لإزالة الوهم. فمفهوم (**الإنس**) ذاته، يقابل مفهوم (**الجن**) في القرآن الكريم. وجوهر (**الإنسية**) هو: **عدم التوحش**. وكأن الإنسان مفطور على أن يأنس بما ينكشف له، و أن يشعر بالوحشة تجاه ما يخفى عنه، وتعتبر **الإنسية** سمة فارقة لجنسه، لا ينفتح معها، إلا على من يتحلى بها. أما من لا ينتمي إليها، فيعتبره مفارقاً له في مدركاته، وفى السنن الحاكمة لحياته ومآله.

ومن شأن تكريس هذا المفهوم إزاحة عبء كبير عن كاهل الأمة،تسلل إلى أعماقها وتوارثته أجيالها، نتيجة الأساطير والخرافات التي تراكمت في تراثها حول الجن وعلاقته بالإنسان. **فالآدمية السوية هي الآدمية الحرة التي تكتسب الخير بإرادتها، وتنسخ بالتوبة الصادقة كل شر، وتحس بالقلق**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالنفس اللوامة من أي انحراف، وتنأى بنفسها عن أساطير نابعة من الوهم بخضوع غير المتماثلين لذات السنن.

ويرشدنا القرآن الكريم في هذا الصدد إلى توخي **التنشئة الإنسانية**، التي ترتوي من **خمسة روافد**: **التوحيد، الاستدلال** على الخالق بالتدبر في المخلوقات، **التدبر** في سنن الله في الكون عبر القصص القرآني والسير في الأرض، **التربية** والتشريع، **البعث** والجزاء. وهذه المحاور التي انتظمها القرآن الكريم، تعول على التاريخ الإنساني كذاكرة ضرورية للحاضر والمستقبل، **ضابطها هو**: التوحيد كقيمة ناظمة للحياة، **وأداتها هي**: الحرية الإنسانية المسؤولة التي لا موضع فيها لعقيدة الجبر، ولا للتعلق بالمرويات الموهمة بها، إذ الصدق كله في كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة، اللذين يقرران:رعاية حرية الإنسان ومسؤوليته، واعتبار كل علم لا يقود إلى الله تعالى هو علم مشبوه، ونبذ العزلة كخيار بأمة الإجابة، التي ينبغي أن تتخذ من المبادرة إلى البلاغ المبين، والثبات في مواضع الجهاد، والسعي من أجل العزة والتمكين عنواناً لها. فالقلة الصالحة العاملة هي الأهم في ميزان القرآن من الكثرة الباطلة المعطلة [٣٤].

٤- **الحرية المسؤولة**: يحتل مفهوم **الإرادة الإنسانية الكسبية الحرة** موضعاً مركزياً في التصور القرآني للآدمية السوية. **فجوهر الإسلام كله** هو: **تحريم العبودية لغير الله، وتقرير المساواة بين كافة البشر**. ومن هنا لا يقر الإسلام مصادرة حرية الإنسان، ويحض على تصفية كافة مظاهر الرق، وتكريس حرية العقيدة، ويدعو إلى الكلمة السواء، والاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة عبر السير في الأرض والتأمل في آيات الله في الأنفس والآفاق، وإلى إبطال الوساطة الكهنوتية، ويوقف الشفاعة على رضا الله وإذنه [٣٥].

٥- **عدمية ما لا ينفع: ينبهنا القرآن الكريم إلى مبدأ مهم، حاكم للأمم، فحواه**: أن كل ما لا يُستخدم ويُنتفع به يُعد في حكم الهالك. فالأمة التي لا تنقب عن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثرواتها، ولا تستخدمها، في حكم الأمة المعدومة. فالقرآن الكريم اعتبر القرى التي هلك أهلها، ولم يعودا ينتفعون بها، قرى هالكة، خاوية، معطلة. كما أنه وصم القرى التي اتسم أهلها بالظلم، بالظلم أيضاً [٣٦]. حيث يقول الله تعالى " فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ " [٣٧].

٦- **امتداد أثر الظلم إلى الأجيال القادمة**: يوجه النص القرآني البشرية إلى أن فعل الإنسان أو الجماعة تجاه نظائرهما، يرتد سلباً وإيجاباً على ذريتهم من بعدهم،بدليل قوله تعالى " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا " [٣٨]. فالآية الكريمة تحرك شفقة الآباء على ذريتهم، بإنزال أنفسهم منزلة المورثين الذين اعتدوا هم على أموالهم، وإنزال ذرياتهم منزلة الذرية الذين أكلوا هم حقوقهم، لتحريك حاسة النفور من الظلم، والأخذ على يد فاعله، بما أنهم إن ضيعوا هذا الواجب، فإنه يوشك أن يلحق بأبنائهم وأموالهم مثله. ذلك أن اعتياد السوء يُنسى شناعته.

والمخرج من هذا التعود هو تقوى الله في مال الآخرين، وإحسان القول لهم، والقيام على الأمانات الحسية والمعنوية المأمور بأدائها إلى أصحابها، **وفى مقدمتها**: قول الحق، والإقرار به، وفعل الصالحات، وتبليغ العلم. وأول المخاطبين بأداء الأمانة إلى أهلها هم ولاة الأمر. فمفهوم الحكم بحد ذاته يعنى العناية بإظهار المحق من المبطل، والردع عن فعل ما لا ينبغي فعله، والتسوية بإيصال الحق إلى أهله، ودفع المعتدى عن الحق وتحرير ما للآخرين من حق لديه من قبضته، والمساواة بين الناس في جوهرها تقتضى تمكين كل ذي حق من حقه، وتعيين الأشياء لمستحقيها، دون إفراط أو تفريط، ودون تعجيل ولا تأخير. وهذا هو جوهر العدل كأساس للحكم. والنص القرآني يطلق الأمر برد الأمانات إلى أهلها عن أي قيد، ويحرض على الامتثال لهذا الأمر في كل الأحوال، ويخوف من مغبة خيانة الأمانات [٣٩].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خامساً: خلاصة عامة: تعنى المؤسسة السياسية: تكوين جمعي ينتظم جماعة بشرية ما، برباط اجتماعي مشترك، تحل به **(ذات جماعية)** محل **(ذوات فردية)**. وهى ضرورة، بما أن الفكر الاجتماعي غير المؤسسي عقيم، والشعور الاجتماعي غير المنتظم مؤسسياً بمثابة **(تكوين مستنقع)**. ويدور الانتماء بين **(الفكر والشعور الاجتماعي المنظم المتمأسس، أي المصاغ في تكوين جمعي بشري منظم، يكفل له الاستمرار والأثر الاجتماعي المتتابع)**. وتقوم المؤسسة على روابط مصلحية بذاتها، أو لجماعة كبرى خارج إطارها. ونواة هذا التأسيس المؤسسي لشبكة انتماءات متفاعلة متدرجة هو **(مؤسسة الأسرة)**. ونحن بحاجة إلى استعادة مؤسسات وحدات الانتماء الفرعي التي ساقنا الغرب إلى الظن بأنها عقبة أمام الإصلاح **فهدمنا تجديداً، ودمرنا إصلاحاً، واستبدلنا مؤسساتنا بمؤسسات جديدة عقيمة، تنطلق من فلسفة تبدأ بالفرد، وتقفز منه إلى الولاء الكلى العام.**

وينبغي الانطلاق من روح المؤسسية النابعة من القرآن والمنضبطة به. ولا ينبغي محاكاة الخبرة المؤسسية الغربية،التي هي نتاج واقع تختلف معطياته عن معطيات بيئتنا. فالغرب كانت ظروفه ملائمة عند تحوله من النظام الإقطاعي، ومن الصراع بين الملوك ورجال الكنيسة،إلى رحاب الدولة القومية،والثورة الصناعية، والعلمانية، لتعلية قيمة الفرد، لأنه كان يحرره بذلك من مؤسسات ضاغطة مانعة، ويفتح الطريق أمامه للانتماء إلى وحدات انتماء جديدة يفرزها رحم المجتمع نفسه. أما عندنا فتم استيراد فكرة الفردية مع القفز من الفرد، إلى الوحدة الكلية العامة، دون حلقات وسيطة متشابكة. وكما يقول المستشار طارق البشرى بحق فإنه **متى صار الشعب أفراداً، فقد صار الحاكم فرداً، لزوال التكوينات الضاغطة، وزوال وحدات الانتماء الفرعية، مع بقاء وحدة الانتماء الأم، المتشخصة فيه بذاته منفرداً عما عداه.** (٤٠).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفحوى هذا الطرح، **هي**: وجوب استعادة دعم الشعور الاجتماعي بروابط القربى، والخروج ثانية من أسر الأسرة النووية إلى الأسرة الممتدة، واستعادة مما يمكن إعادته من وحدات الانتماء الفرعية ومؤسساتها، كنظام الوقف، وإصلاح ما تبقى من مؤسسات تقليدية بما يدعم فاعليتها الاجتماعية، وإصلاح ما استجد منها، وأصبحت له إمكانية الوجود الفعال كالنقابات والجامعات، وابتكار ما يستدعيه الوضع من وحدات انتماء جديدة، بشكل عفوي غير مصطنع، والنظر إلى وحدات الانتماء الفرعية، ليس كبديل لوحدة الانتماء العام، وإنما كروافد لها، والتحول إلى الأسلوب المؤسسي في اتخاذ القرارات.

والحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هوامش الدراسة:

١- انظر مادة (أس) في: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا،معجم مقاييس اللغة،دار الفكر للطباعة والنشر،١٩٧٩،ج ١.وانظر:ابن دريد،أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري،جمهرة اللغة،بيروت:دار صادر،د.ت.

٢- انظر مادة (أس) في: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم،ابن منظور،لسان العرب،بيروت:دار الرشاد الحديثة،د.ت.

٣- ر. بودون،ف. بوريكو،المعجم النقدي لعلم الاجتماع،ترجمة:د. سليم حداد،بيروت:المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،١٩٨٦،ص٤٧٩-٤٨٦

٤- د. رشدي فكار،علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية،باريس كدار النشر العالمية جتتير،١٩٨٠،ج ١،ص١١٥. وانظر: أحمد زكى بدوى، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية،بيروت:مكتبة لبنان،١٩٨٦،ص ٢٢٠-٢٢١.

٥- التوبة: ١٠٨- ١٠٩، محمد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة دار الريان للتراث، ١٩٨٧، ص ٣٣.

٦- المائدة: ٤٨.

٧- البقرة: ٢٨٥.

٨- النور: ٤.

٩- النور: ٦٦.

١٠- الأنبياء: ٨٧.

١١- استعرنا هذا المفهوم من الرافعي،كعنوان لمنهج يتعامل مع النص القرآني، ومع الحديث النبوي بعقل القلب، بعيداً عن القراءة القشرية، وعن النظرة التجزيئية، وعن القراءة الاستشراقية، وعن القراءة القائمة على الحواشي والوهن والجمود. انظر: مصطفى صادق الرافعي، الجملة القرآنية، تذييل: الأمير شكيب أرسلان، تصحيح وتعليق: عبد البديع القادري، بيروت: دار القادري، ١٩٩٢.

١٢- النور: ٢٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١٣- البقرة: ٢٥٧.

١٤- الأنعام: ١٥٣.

١٥- الذاريات: ٤٩.

١٦- النبأ: ٨.

١٧- د. السيد عمر، النسق السياسي للأسرة في المنظور الإسلامي، ضمن: مؤتمر واقع الأسرة في المجتمع: تشخيص للمشكلات واستكشاف لسياسات المواجهة، القاهرة: كلية الآداب جامعة عين شمس، ٢٠٠٤، ص ١٥- ٢٠.

١٨- الصافات: ٢٢.

١٩- يلزم هنا التنويه بضرورة فك أسر مفهوم (السائل)في القرآن الكريم الذي جرى حصره في نطاق من يطلب صدقة مادية،مع أن افقه الأرحب هو:طلب الحقيقة (انظر في رحابة أفق مادة (سأل) في القرآن الكريم، وتشابكه مع مفهوم المسؤولية:محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص٢٣٦-٣٣٨.

٢٠- الزخرف: ٤٥.

٢١- البقرة: ١٨٩.

٢٢- البقرة: ٢١٥.

٢٣- انظر: محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص ٣٣٦ ــ ٣٣٨. خمسة منها في البقرة،: الآيات ١٨٩، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، المائدة: والأنفال:١، الإسراء: ٨٥، الأعراف: ١٨٧، طه: ١٠٥، النازعات:٤٢

٢٤- الصف: ٥.

٢٥- للتوسع في مفهوم المؤسسية والأنساق كسمة للخطاب القرآني، انظر: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تقديم وتعليق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ج ٤، ص ٦ – ٤٢، ص ٥٦ – ٨٩، ص ١٨٢ – ١٨٣.

٢٦- للتوسع في هذا المفهوم، يمكن الرجوع إلى: د. مجدي سعيد، تجربة بنك الفقراء، القاهرة: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧، ص ٣٧ – ٨٤. ويمكن أيضاً الرجوع إلى د. يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٦، الشيخ محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٧.

٢٧- البقرة: ١٠٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢٨- د. مصطفى بو هندي، نحن والقرآن، مقدمات في أصول التدبر، دراسة منهجية نقدية في علم التفسير، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢، ص٦٣ – ٧٢.

٢٩- التوبة: ١٠٧.

٣٠- انظر في هذه المضامين: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الريان للتراث، د. ت، ج ٥، ص ٣٣٧٨ – ٣٦٧٢.

٣١- د. عبد الله شحاتة، تأثير الآيات الكونية، القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٠، ص ٢٩، ص ١٨٠، ص ٢٢٠ – ٢٢٦

٣٢- المعارج: ١٩ – ٢٣. د. زكريا كمال، الجديد في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢، ص ٣٩، ص ١٢٤ – ١٢٥، ص ١٣١ – ١٣٧.

٣٣- انظر في تأسيس هذا المبدأ: د. عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، هذا بلاغ للناس، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩، ص ٨٧ – ١٠٠.

٣٤- انظر في تفصيلات هذه الفكرة: محمد الغزالي، المحاور الخمسة في القرآن الكريم، القاهرة: دار الصحوة للنشر، ٢٠٠٠، ص ٥ – ٦، ص ٢٤ – ٣٩، ص ٤٢ – ٤٤، ص ٧٤ – ٨٠.

٣٥- د. عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، ص ١٤١ – ١٥١.

٣٦- محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٧، ج ٨. ص ٤٣١ – ٤٣٤.

٣٧- الحج: ٤٥. محمد بن يوسف أطفيش، مرجع سابق، ص ٣٠، ص ٦٣ – ٦٤، ص ١٣٣.

٣٨- النساء:٩.

٣٩- المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٥٣، ج ٥، ص ٩١ – ٩٦.

٤٠- المستشار طارق البشرى، منهج النظر في النظم السياسية المعاصرة لبلدان العالم الإسلامي، مالطة: مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩١، ص ٦٥ – ٦٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com